صلاح الدين الأيوبى وموقفه من القوى المناوئة فى بلاد الشام

«٥٧٠/٥٨٩هـ - ١١٧٤/١١٩٣م»

د. /عبد الكريم عبده حتاملة

ملخـص :

كلنا يعلم ما لصلاح الدين من دور كبير في طرد الصليبيين من القدس وتحرير الوطن الاسلامي العربي منهم، لم يكن صلاح الدين يواجه خطر الصليبيين فحسب بل كانت هناك قوى داخلية تناوئه وتقف ضده بكل قوة وقد عملت على القضاء عليه بشتى الوسائل والأساليب الظاهرة منها والخفية، فتجسمت حينا على شكل معارك حربية وأحياناً على شكل دسائس ومؤتمرات واغتيالات بشتى صنوفها، هذه القوى كانت الفرقة الاسماعيلية (الباطنية) التي حاولت بكل ما أوتيت من حيلة وعزيمة بالانتقام من صلاح الدين لأنه كما كانوا يرون السبب الرئيس في القضاء على دولتهم واسقاطها (الدولة الفاطمية في مصر). فلم يألوا جهداً في تدبير المؤامرات وتكوين القوى المضادة ولو كلفهم ذلك وضع أيديهم في أيدي اليهود أو الصليبيين أو أي عدو آخر لصلاح الدين في سبيل الوصول إلى بغيتهم، واستمر العداء بين الطرفين ما يزيد عن التسعة عشر عاماً انتهى بعقد الصلح بينهما في قلعة مصياف بعد حصارها من قبل صلاح الدين مدة أسبوع.

قمت في هذا البحث المتواضع بتفصيل هذه الأحداث بالعودة إلى المصادر والمراجع التي كتبت حول هذا الموضوع بكل تجرد ومنهجية علمية وقد أوردت أقوال المؤرخين المؤيدين لكلا الطرفين وخرجت بعد الربط والاستنتاج من كل هذه الأقوال بخلاصة دونتها في نهاية هذا البحث.

ظهرت الحركة الاسماعيلية بوفاة الإمام جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي. وبعد وفاته انقسم اتباعه إلى فرقتين رئيستين⁽¹⁾.

الفرقة الأولى : وهم المعروفون بالاثنى عشرية حيث الإمامة إلى موسى الكاظم فالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر (الغائب).

الفرقة الثانية : وهم المعروفون بالاسماعيلية(٢)، حيث جعلت الإمامة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد بن اسماعيل.

كانت الحركة الاسماعيلية سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الإمام اسماعيل في حياة أبيه، وبمساعدة دعاته الأربعة(٣). وفي زمن ولده محمد انتقل مركز الدعوة إلى (سملا)(٤) ولكنه استقر أخيراً في مدينة تدمر. وعند وفاته سنة (١٩٣/٧٨٩) تولى الحكم بعده ابنه أحمد الوافي الذي نقل مركز الدعوة إلى مدينة سلمية في سورية والتي أصبحت في عهده مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للأئمة المستورين(٥)، وبعد وفاته (٢١٢/٨١١) انتقلت الإمامة إلى ابنه رضي الدين عبدالله، وفي زمنه انتقلت الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس إلى طور العمل والظهور من أجل بناء دولة اسماعيلية قوية، وبعد وفاته تسلم الإمامة ولده عبدالله الذي ذهب إلى المغرب وأعلن الخلافة الفاطمية هناك وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٧/٩٦٨).

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧/ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤)، ازداد نفوذ الوزراء الفاطميين، فقد استبد الوزير بدر الدين الجمالي بالسلطة في مصر وابنه الأفضل غالي باغتصاب حقوق ولي العهد نزار(٦) والبيعة لأخيه الأصغر المستعلي بالله، وقد انسحب فريق من الناس اثر هذه البيعة وأعلنوا ولاءهم لإمامة نزار وأولاده من بعده، وكان على رأس هؤلاء الحسن بن الصباح(٧)، الذي بدأت في عهده الحركة الاسماعيلية بطور جديد وقد أصبحت الحركة الاسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيماً من الدعوة الاسماعيلية القديمة فقد غدت «جمعية سرية لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها الا زعماؤها الأقلون وقادة أفكارها المقربون بعد أن قطعوا مراحل التكريس واقسموا القسم الغليظ»(٨). بينما كانت الأكثرية الساحقة من الاتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية الا الشيء القليل، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة وبقدر معلوم(٩).

وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها :

الباطنية. الذين ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب في القشر، وأنها توهم الأغبياء وتفهم الفطناء رموزاً واشارات إلى حقائق خفية وان من تقاعد عن العرض(١٠) على الخفايا والبواطن تعثر ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف واستراح من اعبائه واستشهد بقوله تعالى: «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»(١١). وقد سموا البابكية لأن طائفة منهم شيعوا بابك الخرمي وكان قد خرج من ناحية اذربيجان في أيام المعتصم، فاستحل المحرمات فبعث إليه المعتصم الأفشين فتخاذل عن قتاله(١٢). كذلك سموا بالمحمرة لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك وكانت شعارهم(١٣). وأيضاً سموا بالتعليمية لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأي وأبطال تصرف العقل، وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم(١٤). وسموا أيضاً السبعية لأنهم زعموا أن الكواكب السبعة مدبرة للعالم السفلي، أما الغزالي فقد أورد سبباً لهذه التسمية وهو اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن الإنتهاء إلى السابع هو آخر الدور(١٥). وهذا ما أميل إلى الأخذبه وذلك نتيجة الحركات الاسماعيلية التي لعبت دوراً هاماً في ذلك الزمن، وبالإضافة إلى ما ذكر فقد سموا بالحشاشين (Assassins) وهو اصطلاح عام للجماعات الفدائية السرية، وقد عني به في معظم اللغات الأوروبية (المغتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة.

وعلى أية حال فإن حركة الاسماعيلية الجديدة «الحشاشين» ظهرت بشخص الحسن بن الصباح، الذي تمكن من احتلال قلعة الموت سنة (٤٨٣/١٠٩٠) الواقعة في المرتفعات الشمالية الغربية من فارس على شواطيء بحر قزوين الجنوبية(١٧) وأصبحت فيما بعد مركزاً للدعوة ما بين سنة (٤٨٣ ــ ٦٥٤/ ١٠٩٠ ــ ١٢٥٦) وانتهجت أسلوباً جديداً في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالأسلوب السلمي إلى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق(١٨). وعلى هذا الأساس رأى الحسن ابن الصباح نشر دعوته والتوسع نحو الغرب، فكانت بلاد الشام اختياره الطبيعي كي يضعف الدولة السلجوقية القوية (السنية) ويحيطها من الشرق والغرب، ولكي يكون قريباً من إخوانه في العقيدة وهم الفاطميون (الشيعة) في مصر، كذلك إضعاف الخلافة العباسية (السنية) في

بغداد، أضف إلى ذلك عاملاً آخر هاماً يتعلق بالظروف الطبيعية والبشرية في سورية، فهناك سيجدون الدعم والعون من الشيعة والفرق الأخرى المتطرفة الذين كانوا يسكنون المناطق المرتفعة شرقي اللاذقية وجنوبها(١٩)، كذلك فقد كانت سورية نادراً ما عرفت الوحدة السياسية كما أن طبيعة أراضيها المتموجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزاً للدعوة والدعاة(٢٠).

وفي سورية حاول الاسماعيليون بمختلف الوسائل السيطرة على الحصون والقلاع الحصينة لاتخاذها مقراً لأعمالهم واستخدامها «كقواعد لحملة الإرهاب»(٢١) التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والأمراء السنيين ومن وجدوا فيه خطراً يهدد دعوتهم ونتيجة لهذه السياسية التي ارتسموها فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وذامية، وكونوا لهم جمعيات علنية في دمشق وحلب وقاموا بسلسلة من الاغتيالات كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وأمرائها منهم الأمير جناح الدولة حسين (١١٠٢/٤٩٦)(٢٢) والأمير خلف بن ملاعب سنة (١١٠٦/٩٩)(٢٣) واتابك الموصل مودود سنة (١١١٣/٥٠٧)(٢٤)، كما قتلوا أيضاً سنقر البرسقي اتابك الموصل (١١٢٦/٥٢٠)(٢٥) في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة، ولم يكتفوا بذلك فقد تمكنوا أيضاً من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة كسيطرتهم على مدينة بانياس (١١٢٦/٥٢٠)(٢٦) وبعد اتفاقهم مع الفرنجة سلموا هذا الحصن سنة (١١٣٠/٥٢٤)(٢٧) وفي هذا العام نكب الاسماعيليون حيث ثار عليهم العامة والأحداث بدمشق وفتكوا بهم، بعد أن تكبدوا كثيراً من القتلى والجرحى(٢٨) مما يدل على كثرة أعدائهم في دمشق ولكنهم تعلموا درساً قاسياً بعد هذه النكبة وخرجوا بنتيجة قطعية: وهي أن المدن الكبيرة لا تصلح أن تكون مركزاً لحركتهم.

ترأس الحركة الاسماعيلية في منطقة الشام بعد تلك النكبات راشد الدين سنان(٢٩) الذي قام بنقل مقر عمله من حلب إلى قلعة مصياف وسمي بشيخ الجبل(٣٠)، وكانت مرتبته في الدعوة داعي دعاة ويليه في المقام: الداعية الكبير، ويليه: الداعية العادي، ويليه: الرفيق، وأخيراً الفداوية الذين اشتهروا بطاعاتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل(٣١).

وتاريخ الاسماعيلية في الشام هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية

بصورة عامة «فلم يقاتل الحشيشية عادة الإثني عشرية أو الشيعة الآخرين ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين»(٣٢) وهذا يؤدي إلى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الاسماعيلية والفرنجة من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية، ومن الأدلة التي تثبت حقيقة التعاون مع الفرنجة أنه في سنة (٥٦٩/١١٧٣) أرسل راشد الدين سنان وفداً إلى أملريك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نور الدين، ولوّح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية، وطلب منه مقابل ذلك الغاء الضريبة التي فرضتها فرسان الداوية من الفرنجة على بعض القرى الاسماعيلية، لأنه أدرك النتائج الإيجابية التي انطوى عليها ذلك الاتفاق، ولما عاد وفد الاسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره، مما أثار غضب أملريك فبعث بكتاب توبيخ للجناة، وطلب من مقدم الداوية سجنهم، كما أرسل إلى سنان معتذراً وأعلمه أن الجناة نالوا عقابهم، وكان لهذا العمل أثره الطيب مما زاد في ابقاء العلاقات الطيبة بين الطرفين.

وبعد وفاة نور الدين تجدد الاتفاق المعقود بين الفرنجة والاسماعيلية على قتال صلاح الدين والقيام بانقلاب داخل القاهرة للاطاحة بالحكم الأيوبي واعادة الخلافة الفاطمية(٣٤) أما علاقة الاسماعيلية باليهود، فكما يبدو أن عدداً كبيراً من اليهود كان يعمل بين صفوف الحركة الاسماعيلية لخدمة أهدافها، وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار منطقة الشام حوالي سنة (٥٦٩/١١٧٣) بأنه كان يقيم بين الاسماعيلية في الشام نحو أربعة آلاف يهودي «يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد علي قتالهم، وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد(٣٥). وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدواً كبيراً لهم لأنه قضى على دولتهم الفاطمية في مصر، وتقدم إلى الشام لتوحيده وضمه إلى مصر وبخاصة أنه من القادة السنيين، ومن أجل ذلك قاموا وتعاونوا مع الفرنجة والزنكيين لأجل القضاء عليه، غير أن محاولاتهم فشلت، ففي سنة (٥٧٠/١١٧٤) راسل سعد الدين كمشتكين ــ اتابك الملك الصالح بن نور الدين ــ راشد الدين سنان أثناء حصار صلاح الدين لحلب، وبذل له أموالاً كثيرة وعدداً من القرى ثمناً لقتل صلاح الدين(٣٦)، فأرسل سنان جماعة من فداوييه إلى المعسكر الأيوبى، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين فعرفهم فقال

لهم، «ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم»(٣٧) فهجموا عليه وقتلوه، وحمل أحدهم على صلاح الدين لقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية حتى قتلوا جميعاً بعد أن قتلوا جماعة من العسكر الأيوبي(٣٨).

أوضحت هذه المحاولة الخطيرة لاغتيال صلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين ومن الصليبيين وانه يجب عليه أن يحسب لهم الحساب.

ولم يكتف مقدم الاسماعيلية بهذه المحاولات الفاشلة لقتل صلاح الدين فقد أرسل إليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ/٢٢ أيار ١١٧٦م جماعة من أتباعه بزي الأجناد دخلوا بين العسكر الأيوبي وباشروا الحرب معهم حتى امتزجوا بهم انتظاراً لفرصة مواتية ليجهزوا على صلاح الدين فيقتلوه(٣٩).

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب، تقدم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال، وفي أثناء ذلك قفز عليه أحد الاسماعيلية وضرب رأس صلاح الدين بسكين معه وكاد يقتله لولا المغفر الزرد الذي كان تحت قلنسوة الناصر وكان صلاح محترزاً «لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد من على رأسه»(٤٠) وأمسك السلطان بيد الملحد الباطني، ولم يستطع أن يحول دون ضرباته التي كانت موجهة إلى عنق الناصر المسمى بالكراعتد(٤١) ولما لم يستطع الباطني قتل السلطان مد بالسكينة إلى خد صلاح الدين فخدشه وجرى منه بعض قطرات من الدم، ونتيجة لذلك أسرع حرس السلطان لحمايته من الملاحدة.

ويخبرنا ابن واصل عن هذه المحاولة بقوله: «وأسرع مملوك السلطان وهو سيف الدين بازكوج وأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها حتى قتل الباطني وجاء آخر ــ أي باطني آخر ــ فاعترضه الأمير داود بن متكلان الكردي فمنعه وجرحه الباطني في جنبه فمات وقتل الباطني وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت أبطيه وبقيت يد

الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب ونادى علي: اقتلوني معه فقد قتلني واذهب قوتي، فطعنه ناصر محمد بن شيركوه فقتله وخرج آخر من الخيمة ـ أي باطني آخر كان في خيمة السلطان ـ منهزماً، فثار عليه أهل سوق العسكر فقطوه»(٤٢).

ارتاع صلاح الدين لهذا الحادث وقد عاد إلى خيمته والدم يسيل على وجهه ثم استعرض جنده فمن أنكره أبعده ومن عرفه أقره، وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته «على مثال خشب الخركاه»(٤٣) وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب ورغم هذا تابع حصار مدينة عزاز حتى سلمت له بكرة الاربعاء ١١ ذي الحجة من سنة (١١٧٦/٥٧٢)(٤٤).

كان لهذه المحاولة الفاشلة والتي استهدفت قتل صلاح الدين صدى بالغ الأثر في نفوس العسكر الأيوبي، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض «فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر»(٤٥).

نستدل من هذه المحاولة على أن الحركة الاسماعيلية كانت دقيقة ومنظمة وسرية في عمليات الاغتيال، فبالرغم من وجود عدد من الاسماعيلية داخل العسكر الأيوبي غير المعروفين فإنهم لم يهجموا على صلاح الدين جميعاً دفعة واحدة، فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم فيظل الباقون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى، لذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعاً في هذه العملية، ولما لم يحقق الباطني الأول الهدف هجم الثاني ثم الثالث.. وهكذا..

وقد ظلت الاسماعيلية مصدراً للانحلال السياسي والإجتماعي في بلاد الشام طيلة عصر الحروب الصليبية(٤٦) واتخذوا من الاغتيال السياسي والتصفية الجسدية مبدأ ساروا عليه لتحقيق أهدافهم في السيطرة على أجزاء من بلاد الشام وانهاك القوى السنية فيها، حتى أن السلطان صلاح الدين كان هدفاً لمحاولتين استهدفتا اغتياله ولكنه نجا من خناجرهم(٤٧).

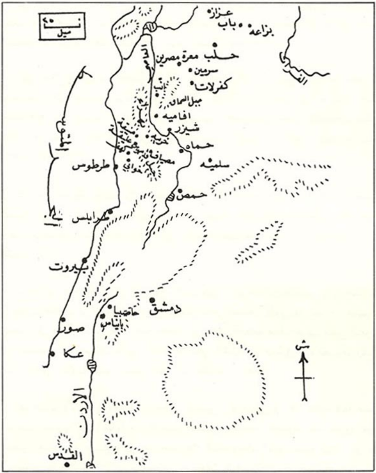
٤٠
ميل
عزاز
باب
بزاعة
حلب
معرة مصرين
سرمين
كفرلات
إنب
جبل السماق
افاميه
شيزر
حماه
سلميه
حمص
طرطوس
مصياف
الخوابي
خربيه
طرابلس
بيروت
دمشق
حاصبيا
بانياس
صور
عكا
الأردن
القدس
الفرات
العاصي
المتوسط
ش

قلاع الدعوة في بلاد الشام .

وبالمقابل قام صلاح الدين بالهجوم على قلاعهم وحصونهم الممتدة على طول صفحة جبل لبنان في ٢٠ محرم سنة (٥٧٢/١١٧٦م) بقصد خرابها وقتل الاسماعيلية فيها، وأهم تلك القلاع والحصون: القدموس(٤٨) والكهف(٤٩) ومصياف(٥٠) والعليقة والرصافي والمنيقة والقليعة والرصافة والخوابي وغيرها(٥١). وقد تمكن صلاح الدين وعسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار ثم أوسع من بداخلها قتلا وساق أبقارهم وخرب ديارهم(٥٢). كذلك حاصر قلعة مصياف مركز زعيمهم وهي أعظم حصونهم ولكنه لم يتمكن من فتح قلعة مصياف التي قاومت الحصار اسبوعاً، والروايات التاريخية مختلفة فيما حدث ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل أن يتم فتحها ــ ومن الروايات التاريخية التي تذكر ذلك رواية المؤرخ الاسماعيلي أبو فراس جاء فيها: «ان صلاح الدين انسحب من مصياف خوفاً من سنان، وحفاظاً على حياته مما رآه وسمعه من الخوارق التي كان يقوم بها سنان ضده»(٥٣).

وتذكر الروايات الاسماعيلية أيضاً أن صلاح الدين تبادل الرسائل مع سنان وطلب منه التسليم فرد سنان بالرفض فأجابه على الفور بأنه مستعد لقتاله، وفي الليلة نفسها أرسل إليه سنان أحد فدائييه فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه اشعاراً ينطوي على بعض التهديد(٥٤)، وفي الليلة التي أعقبتها ضرب صلاح الدين حول خيمته نطاقاً من الحراس وأمر بنشر الطحين حواليها، وفي الصباح وجد صلاح الدين سليماً وقد بدل محل مصابيح خيمته، علماً بأن أحداً، من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل إلى الخيمة، فاستولى على العساكر الرعب سيما وقد هبطت إليهم رسالة بواسطة سهم من مصياف جاء فيها: «ألا فاعلموا أننا نروح ونغدو كما كنا في السابق ولن تعوقونا بحال من الأحوال»(٥٥).

ومن الروايات الأخرى التي تذكر سبب مغادرة صلاح الدين مصياف ماجاء في الرواية التالية: «ما مد صلاح الدين سنان مع اثنين من مساعديه، وعندما أراد التقدم إليهم ببعض أمرائه للقبض عليهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على التقدم، لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم، وقد انزعج صلاح الدين مما حصل واعتقد أن هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه»(٥٦).

ويبدو من هذه الروايات التاريخية أنها عن مقدرة سنان أنها ضعيفة وغير دقيقة بدليل أن الاسماعيلية حاولت اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ولم تفلح في مسعاها، ولو صح أنها تمكنت منه كما ذكرت هذه الروايات لاستطاعت قتله. وهناك رواية تارخية أخرى تذكر «أن عساكر صلاح الدين لما قتلت الاسماعيلية وضربت ديارهم، شفع فيهم خاله شهاب الدين ـ صاحب حماه ـ إذ كان راشد الدين سنان قد راسله في ذلك لأنه من جيرانه، فقبل صلاح الدين شفاعة خاله فيهم وترك حصار مصياف»(٥٧) في حين يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل أن راشد الدين سنان لم يراسل شهاب الدين ويطلب منه التوسط لدى صلاح الدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي أو التوسل إنما قال له: «إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه»(٥٨).

ويستطرد ابن الأثير قائلاً: «ان العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعدم التمكن من فتح مصياف، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من عسكر الموصل وبلد الاسماعيلية، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة فأذِن لهم صلاح الدين وسار هو إلى مصر»(٥٩) ولذلك انتهى حصار مصياف.

والحقيقة أن فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاح الدين ولخاله شهاب الدين فحسب وإنما كان هدفه واضحاً للجميع وهو: توحيد الجبهة الإسلامية لمقاتلة الصليبيين وطردهم من البلاد المغتصبة، وخوفاً من هجوم الصليبيين على البلاد الإسلامية، ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت، وقد تحقق ذلك. فحين كان صلاح الدين محاصراً لمصياف أغار الفرنجة على بعض البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم ـ متولي بعلبك ـ فقتل منهم جماعة واسر أكثر من مائتين وأحضرهم إلى صلاح الدين في مصياف، فخاف أن يثور الفرنجة في الشام الأعلى وهو بعيد عنهم فصالح سنان وعاد إلى دمشق(٦٠)، وربما كانت وساطة شهاب الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح الدين عازماً على مصالحة الاسماعيلية.

وعلى كل فإن الصلح تم بين الاسماعيلية وصلاح الدين ويبدو أن صلاح الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلهم يقفون على الحياد للتفرغ للصليبيين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية، وعندما عقد صلاح الدين صلح الرملة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) اشترط عليهم دخول بلاد الاسماعيلية في شروط الصلح حتى لا يستخدمهم الفرنجة في مهاجمة أملاكه(٦١). كذلك فإن الاسماعيلية رغبوا في الصلح قبل أن يسعى إليه صلاح الدين لفشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم وجود قوة عسكرية اسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الأيوبية، لذلك فضلوا وقوف صلاح الدين على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً، لهم وكان صلاح الدين يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم وتهديدهم لحياته وأمنه ورغبته في التفرغ إلى الجانب الأكثر خطورة على مستقبل سياسته ودولته، كانت تلك الخطورة متمثلة في تفكك الامارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها إليه أولاً والقضاء على الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانياً.

• • •

الهوامش :

(١) برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، نقله إلى العربية خليل أحمد جلو ورفيقه ط. القاهرة، د، ت، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) يوسف غوانمه غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ط، عمان، ١٩٨١، ص ٤١ محمد جمال الدين سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ط، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٤. كذلك أنظر هاملتون آ. رجب، صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف ايبش، ط بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦.

(٣) ميمون القداح، مبارك بن جعفر، الفضل بن عمر، حمدان بن أحمد، برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، ص ١٠٧.

(٤) سملا: اطلق عليها فيما بعد اسم «محمد آباد» نسبة اليه. سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص ٥ ـ ٦ وهي مدينة في شمال الهند، محطة اصطياف على سفوح هملايا، كانت عاصمة الهند الصيفية. المنهل دار المشرق، ط ٢٧، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٦٦.

(٥) دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، ط، بغداد، ١٩٧٦، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٦) القلقشندي ت (١٤١٨/٨٢١): أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط القاهرة، ١٣٣٨/١٣٣١هـ، ج ١٣، ص ٢٤٥ كذلك أنظر أبو شامة ت (١٢٦٧/٦٦٥): شهاب الدين بن محمد عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المغربي، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط القاهرة ١٩٥٦، ص ٥٢.

(٧) هو الحسن بن علي بن محمد الحميري، ولد في قم وكان كوالده من الشيعة الاثنى عشرية، غير أنه وقع تحت تأثير أحد دعاة

الفاطمية واسمه (عامر دراب) وتنقل على عدد من الدعاة الاسماعيلية، وكان رجلاً طموحاً يحلم بإقامة دولة جديدة وفي رمضان سنة ٤٦٤/حزيران ١٠٧٢م ذهب إلى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بعد أن عمل كوكيل لابن عطاش الداعي في مدينة اصفهان لمدة سنتين وقد تمكن من العودة إلى فارس ثم تسلل إلى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن اتباعه من السيطرة على عدد من القلاع الحصينة في جبال فارس. مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية، ط. بيروت، ١٩٦٤ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٨. فايد حماد محمد عاشور جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٨) بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، ط، الاندلس، ١٩٢٨، ص ٥٢.

(٩) دريد نوري، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام، ص ٣٣٦، محمد عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق، ط، القاهرة، ١٩٠٧، ص ١٨ ـ ١٩.

(١٠) ابن الجوزي ت (٥٩٧/١٢٠١): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، القرامطة تحقيق محمد الصباغ، ص، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٧.

(١١) قرآن كريم، سورة الاعراف، آية ١٥٧.

(١٢) من المعروف ان الافشين اسر بابك وأتى به إلى سر من رأى ثم قتله. أنظر ابن الجوزي، القرامطة، ص ٤٩.

(١٣) ابن الجوزي، نقد العلماء أو تلبيس ابليس، ط. بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٢ ثم القرامطة، ص ٤٩.

(١٤) ابن الجوزي، القرامطة، ص ٥٠.

(١٥) ابن الجوزي، تلبيس، ابليس، ص ١٠٢.

(١٦) دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٦٧.

(١٧) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٤٧٤، فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، ط، بيروت ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦، وليم لا نجر، موسوعة تاريخ الإسلام، أشرف على ترجمتها محمد مصطفى زياده ط، القاهرة، ١٩٥٩، ج ٢، ص ٩٥.

(١٨) محمد كامل حسين، طائفة الاسماعيلية، تاريخها، تنظيمها، ط، القاهرة د.ت، ص ٦٣. دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧٠.

(١٩) ابن جبير ت (٦١٥/١٢١٧): أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير ط. بيروت ١٣٨٤/١٩٦٤. يوسف غوانمه، غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ص ٢٠.

(٢٠) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية)، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، ط، بيروت، ١٩٧١، ص ١١٥.

(٢١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٢٢) جناح الدولة حسين صاحب حمص عمدوا سنة (٤٩٦/١١٠٢) إلى اغتياله حيث وثب عليه (ثلاثة نفر عجم من الباطنية) وقتلوه بالسكاكين. ابن الأثير ت (٦٣٠/١٢٣٣) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج ٨، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ٤٩٥.

(٢٣) صاحب حصن افامية الذي استولى عليه الاسماعيلية بعد مقتله. أنظر ابن القلانسي ت (٥٥٥/١١٦٠): أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، ط. القاهرة، ١٩٠٨، ص ١٤٩.

(٢٤) ذكرت المصادر انه كان مجاهداً تقياً، قتله الاسماعيلية بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الأخر سنة (٥٠٧/١١١٣) في دمشق، عندما كان عازماً على توحيد الجيوش الإسلامية لمحاربة الفرنجة، كسب مودة أهل بلاد الشام، حتى تبوأ قيادة المسلمين في الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة، غير أن الاسماعيلية اغتالته لأنه هدد مصالحها. المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٢٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠، ص ٦٣٢.

(٢٧) دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧١.

(٢٨) قدر عدد قتلاهم بستة آلاف، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٥٧.

(٢٩) من أهالي عقد السودان (قرية قرب البصرة) ذهب إلى حصن الموت، وهناك أثبت جدارة ونباهة عقل، أرسله صاحب الموت إلى حصون الشام ليتزعم قيادة الاسماعيلية، قاتل السلطان نور الدين محمود في عدة معارك، توفي سنة (١١٩٣/٥٨٩). مزيداً من التفصيلات أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٥، اليافعي ت (١٣٦٦/٧٦٨): أبو محمد عبدالله بن أسعد مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج ٣، ط. حيدر أباد الدكن، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.

(٣٠) برنارد لويس، الحشيشية، ص ٢٠٧، كذلك صفحة ٢١٢.

(٣١) Browne (Edward G): A Literary history of Persia Vol. II. Cambridge. 1951. p.209.

(٣٢) برنارد لويس، الحشيشة، ص ١٥٣.

(٣٣) Runciman (Stevan): A history of the crusades Vol. II. London 1957. P.688.

(٣٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٢، فيليب حتى، تاريخ سورية وفلسطين ج ٢، ص ٢٤٥ ــ ٣٤٦. عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، في التاريخ الإسلامي، ص ٤٧٤، الاسكندرية، دار المعارف ١٩٦٧، يوسف غوانمه، امارة الكرك الأيوبية، ص ١٠٨.

(٣٥) بنيامين ت (١١٧٣/٥٦٩): الربي بن يونه التطليلي، رحلة بنيامين، ترجمة عن العبرية عزرا حداد، ط. بغداد، ١٩٤٥، ص ١٥٣ ــ ١٥٤.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩. أبو شامة ت (١٢٦٧/٦٦٥): شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط. القاهرة، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

(٣٧) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

(٣٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩ ـ كذلك أنظر ابن واصل ت (١٢٩٨/٦٩٧) جمال الدين بن سالم، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة، ١٩٥٧، ج ٢ ص ٢٦.

(٣٩) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١ ص ٢٤.

(٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر البنداري ت (١٢٥٤/٦٤٣): قوام الدين أبو علي بن محمد، سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الاصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن. ط. بيروت، ١٩٧١ ج ١، ص ٢١٠.

(٤١) الكراعتد: صفائح الحديد. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٢٥.

(٤٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٤٣) الخركاه: لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة ويقال انه أيضاً قبة تركية وتغطيها قطع من البلد البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١ ص ٢١١. دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ (الهامش رقم ٧).

(٤٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٥.

(٤٥) ابن كثير ت (٧٧٤هـ/١٣٧٢): عماد الدين بن أبي الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ج ١٢، ط. القاهرة، ١٩٣٢، ص ٢٩٣.

(٤٦) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص ١٢٥.

(٤٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحركة الاسماعيلية، ج ١ ط. . القاهرة ١٩٧٥، ص ٥٤٦، يوسف غوانمه، غلاة الشيعة

الباطنية في بلاد الشام، ص ٣١.

(٤٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٤١. ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٠٤.

(٤٩) كان الكهف والقدموس حصنان من الحصون التابعة لعاملة طرابلس وهما حصنان منيعان. أنظر الظاهري ت (٨٧٣هـ/١٤٦٨م): غرس الدين خليل بن شاهين كتاب زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك، ط. باريس ١٨٩٣، ص ٤٨.

(٥٠) مصياف: كان من أمنع الحصون ويقع على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس، اتخذه سنان مركزاً لحركته وقد استولى عليه سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) «بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له» ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بن منقذ أصحاب شيرز، مزيداً من التفصيلات أنظر: ابن لاثير، الكامل، ج ١١ ص ٣٩، سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٤٤. دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، ص ٣٨٢ (الحاشية).

(٥١) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص ١٢٥، ابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٦٩.

(٥٢) ابن الاثير، الكامل، ج ١١ ص ٤٣٦.

(٥٣) ابن العماد ت (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. بيروت، د.ت.ج ٤، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ كذلك أنظر :ــ

Runciman (Stevan): A history of the crusades Vol II. London. 1957. p.410.

دريد نوري، سياسة صلاح الدين ص ٣٧٣.

(٥٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤ ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥.

(٥٥) هارولد لامب، شعلة الاسلام، ترجمة محمود عبدالله، ط، بغداد، ١٩٦٧، ص ٧١ ــ ٧٢.

(٥٦) Rosebault (Charlies J.): Saladin prince of chivlary. London 1930. pp.112-114.

(٥٧) أبو شامه، الروضتين، ج ١ ص ٢٦١.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٣٦.

(٥٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦٠) ابو شامه، الروضتين، ج ١، ص ٢٦١.

(٦١) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر يوسف غوانمه، امارة الكرك الايوبية، عمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٦٧.